التعليم والتربية

الارادة والعزم

اهتم الفرنسيس للكتاب الذي وضعهُ المسيو دومر(١) والي الهند الصينية السابق ورئيس مجلس النواب في فرنسا واحتفوا به لما وجدوا فيه من ادوية ادوائهم الاجتماعية وطرق تربية النشء تربية تقيهم آفات العصر التي ضجَّ منها العقلاء وحار في معالجتها الحكماء . وهناك سبب آخر لتلقي القوم هذا الكتاب بايدي الاعتبار وهو غير ما يتبادر للذهن من بهرج الالقاب التي تحف باسم مؤلفه . بل هو ما عرفوهُ من مبادئ نشأته ووسائل رفعته حتى كانت سيرته مثالاً يحتذى في الشهامة والاقدام واخلاقه خير وسيلة لاستكشاف اسرار النجاح . وقد تسابقت جرائدهم وتجلاتهم الى شرحه وتقريظه ونقلت حسب عادتها فصولاً منهُ توضيحاً للدلالة عليه والتعريف بهِ . فآثرت تعريب هذا الفصل لشمول فائدته كل قارئ من اي قوم كان قال في الارادة والعزم :

تعلم الارادة واعمل ما ينبغي . بذلك يمكن ان تلخص النصوص العديدة التي تتخذ قواعد للحياة . ادّ الواجب وكن بعد في الجملة رجل حق ابداً . هذه هي الوصية السامية والفريضة الادبية التي تسود في سيرة الانسان . ولا ينبغي لامثالنا ان نرغب فيها فقط بل يجب ان نكون اهلاً للعمل بها اولي ارادة وقوة نحكم على انفسنا . هذا هو المهمُّ وهذا هو الصعب . من اجل ذلك كان اول ما يجب على الفتى المتقدم لاحتمال اعباء الحياة ونبعاتها ان يتأهل لامتلاك قياد نفسه فتكون لهُ السلطة المطلقة على هواهُ وخطرات قلبه كما لها على جسمه واعمال جوارحه . فاذا كان المرء كذلك اوشك ان يكون امراً خيراً وان يقبض في الغالب على زمام حياته وقياد سعادته

كيف السبيل الى تأمين سيطرة مستمرة مثل هذه على النفس وهي تظهر متعسرة بادئ بدء وان تكن تهونها المزاولة حتى لقد تصير آلية ؟ انّى لنا الصبر على الانفعالات الجاهلية وعلى الجواذب والقواتن التي تحيط بالانسان ؟ كيف نغلب الميل الى البلادة والاستسلام الى الاميال الطبيعية التي يحلو الاسترسال معها ما لم تقدر عواقبها ؟ كل ذلك ينال بتعلم الارادة والتمرن عليها

---

(١) راجع ص ١٤٨ ج ٣ من المقتبس

نظم الفلاسفة الارادة في سلك القوى الانسانية الاولى فلا نظير لها في الاهمية الاَّ العقل الذي يضبط الفكر والواجب والحكم . ثم الاحساس الذي هو مبدأ الحواس والعواطف والشهوات . وان الذوق السليم ليتفق مع الفلسفة على وضع الارادة في الموضع الاول بين القوى البشرية وصفات الانسان الكامل . فان الارادة القوية الثابتة تتمكن من كل امر من حيث الشؤون المعنوية وكثير من الامور المادية

رجل الارادة هو وحده الحر في الحقيقة فهو رب احكامه وافعاله يقود افكاره وعواطفه بل وخياله ويخضع كل شيء لسلطة العقل . فهو يسير بمقتضى احكام عقله ويأتمر باوامر وجدانه مع قابليته للسلوك وفق قواعد الحياة التي دعته الحكمة الى اتخاذها

وفي الامكان ان يتغلب الانسان بالارادة الثابتة على الشهوات الغائرة متطرفة او مهلكة وان لا يدع سلطة على نفسه لغير العواطف الكريمة والخواطر النبيلة . ولا يصغي الى العواطف الاَّ اذا لم تقتض شيئاً ينافي الواجب . فلا بدَّ اذاً من ارادة حديدية تكون المرء امرأ خير فاضلاً حقيقة . وكلُّ بمثل تلك الارادة يستطيع الكمال مهما كان مزاجه ومعايبه وكيف كانت مشاربه ومذاهبه

ويحسن في المزاولات الحيوية والاعمال اليومية العديدة التي يمتلئ بها حياتنا اذ منها يتكون نسيج وجودنا ان لا نضطر الى التحاور في الفكر عند كل امر لتبيين اتفي العمل به تكون الفائدة ام في الامتناع عنهُ . ولكن يجب ان يكون لنا قواعد ثابتة وان تكفي ادنى حركة من ارادتنا المتنبهة لتوعز الينا بالجزم

فاذا كنت تعرف قيمة العفة وكان من قاعدتك ان لا تفرط في الطعام وايقنت بمضرة المسكر والدخان مثلاً ثم تعددت المثيرات وتوالت الدواعي الى ما يخالف ذلك فينبغي ان تتقيها الارادة بالعزم . وتمرن الارادة يومياً على مغالبة مثل هذه الصغائر يجعلها نافذة السلطان في غيرها من الامور المهمة

لا ينال الخير في الشؤون الخصوصية والعمومية الاَّ بالارادة . ثم ليست هي المادة الوحيدة للنجاح الا انها شرط اولي لا اثر لغيره من الشروط بدونه . فان كنا نجد لهذه القوة الحيوية اعني الارادة تأثيراً محتماً في كل امر لو نظر فيه على حدة فماذا نجد من تأثيرها في حياة يتوالى عملها فيها ؟ لا جرم ان الرجل الذي عرف ان يتملك تلك القوة يصير اليه في الغالب تعيين حظه حتى لا يدع للمصادفات والطوالع السيئة الاَّ ادنى مالها من التأثير في حياته بحيث يكون هو الكاسب لفلاحه والباني لسعادته

وأما الرجل الذي لا ارادة له فلا يكون له من التأثير في حظه الا القليل ولو كان ذا عقل كبير فيظل أُلعوبة بيد الحدثان وامره الى الاتفاق . يجري في الحياة كما جرت تلك لا دفة لها فوق بحر هائج فهي تجر من غير ما ادارة تتجاذبها الارياح وتتدافعها التيارات الى ان تصير الى لجة تبتلعها

والجامدون من الرجال الذين فقدوا الارادة بتة هم شواذ كأُولي الارادة الثابتة المطبوعين على العزم والعمل . اما السواد الاعظم فمؤلف من ضعفاء الارادة وذوي العقول المترددة ولقد كان في امكان هؤلاء ان يكونوا احسن حالاً مما هم عليه ثبات عزيمة وسداد رأي لو تعلموا الارادة . فالتردد والحيرة اللتان تفترسانهم هما مرضان يؤولان بمرور الزمن الى شلل الارادة بالفعل . وقد تكون الحيرة والتردد في بعض الاحوال اشد التواقص خطرًا وتؤديان الى الرزايا اذا كان صاحبهما رئيساً ما لان العزم هو الصفة الاصلية للقواد والحكام والامراء هكذا تقتضي كلتا الحياتين العمومية والخصوصية ان يعرف المرء ان يعتزم ويريد

فالارادة التي يقودها العقل اذا ما عملت في الانسان بصورة مستمرة حتى تبلغ الغاية من نشاطها ويتم لها الكمال تصير عزماً وذو العزم هو رجل ارادة وثبات واقدام وذلك خير ما يوجد في المجتمع وافيد ما فيه . واندر الاوان كل ما يقال عن مآثر الارادة فهو حق وان شئت فقل ما يقال عن مآثر العزم . العزم يحتاجه الانسان ليكون فاضلاً يصنع الخير كما يحتاجه لانشاء حظه وسعادته . وبه يربي شخصيته الادبية والعقلية ويكوّن حياته جمعاء . وحكم العزم نافذ في هذين الامرين الحسي والمعنوي على السواء . فذو العزم ينمو عقله وهو يتحسن ويتكمل ابداً

الطريقان المفتوحان امامنا طريق الخير وطريق الشر بينهما فرق اما طريق الشر فسهلة وهي على منحدر يستدرج فيكفي من الانسان ان يميل ميلاً حتى يتردى الى الحضيض . واما طريق الخير فهي اكثر عناء اذ ينبغي لسلوكها جهد مستمر وارادة ثابتة وبالجملة ينبغي لها عزم

والعمل في اصلاح النفس وتكميلها عمل يومي وشغل لا ينقضي من مثابرة المكارم والفضائل لاكتسابها والتنقيب عن النقائص والمعايب لمكافحتها وازالتها وعن المبادئ التي تستدعي الحذر والشهوات التي يجب ان تقهر . هنالك الخير خيرٌ يفعله الانسان لذاته وثمت خير آخر لا يقل فائدة عن ذاك وهو ما يفعله الانسان مع غيره ادبياً كان او مادياً بالنصيحة والاسوة الحسنة قولاً او فعلاً

صاحب العزم الثابت لا يتحول البتة عن هذا العمل النبيل والصنع الجميل يقوم به بامانة

ودقة مستضيئاً بمصباح العقل معتمداً على جزم الارادة . وانه ليمكنه بل يجب عليه ان يفحص كل يوم ضميره واعماله فيعتبر اليوم الذي لم يتيسر له ان ينفع فيه احداً يوماً مشيماً ثم يتفكر ويتدبر ويستمد من تفكيره حياة جديدة امزمه وقوى غضة لحرب الحياة فان ذا الارادة القوية ليفلح اكثر من غيره فيما لا يحيص عنه من الجهاد في سبيل الحياة اذ يكون اهزاً للعمل فيما ينفعه وينفع ذويه وفيما يغنيه ويرفعه ويحقق امانيه . العزم يفيد في تحصيل الرفاهية والسعادة ما لا يفيده العقل او الحظ فعلى كل من اراد النجاح في حياة تليق به ان يلتمس عزماً عريقاً في الثبات وبعد فبقية اسباب النجح تأتي زائدة

ارى في الناس عموماً والافرنسي خصوصاً — لاني اليه انظر — جرثومة الارادة الثابتة وارى فيه قوة ومتانة ظلت مهملة حتى جمدت وصارت كأن لم تكن لعدم العناية بها والالتفات الى تهذيبها . اراأيت الرجل يسترخي عضله ويضعف جثمانه اذا هو اهمل الرياضة وترك العمل ؟ فكذلك الشأن في القوى الادبية

اذا كنا نهذب العقل في إبان الشبيبة فمتى نربي العزم ؟ لقد آن للشباب الذين اوجه اليهم هذا الخطاب ان يشرعوا في هذه التربية والتنمية الادبية بانفسهم ويجب ان يكون هذا اكبر همهم . وعليهم لكي يتعلموا الارادة ويحصلوا منها على نتيجة ان يعزموا عليها ويمارسوها من غير انقطاع ولا استراحة فيستعملونها في تكميل انفسهم وكل شأن من شؤون وجودهم اذ الغاية ان يجعل الانسان ذاته رجلاً ذا عزم يملك هواه ويقتدر على ادارة حياته وتدبير اعماله وان يكون هو المنشئ لسعادته وسعادة الآخرين من بني جنسه وان يشرف بلاده وينفعها بخدمته . فيا ايها الشاب الذي تقرأ كلامي ان كنت عازماً على بلوغ هذه الغاية فاذكر الكلمة الاولى من هذا الفصل وهي تعلم الارادة . بقول مهربه واضف اليها هذا البيت العربي

اذا لم تك الحاجات من همة الفتى ... فليس بمغن عنك عقد التمائم

بيروت عبد المعين خلوصي